

اللازمة والحرص
المحتوم أن يرهف
الناس الأصماع ويحدوا
الأبصار ويضاعفوا
الانتباه كلما لاح لهم
النورى أو النورية من
بعيد أو من قريب ،

فَدَرَفْنَا الْمَاضِيَ الْبَغِيضَ لِلْأَسْتَاذِ أَدِيبِ عَبَّاسِيٍّ

ويعلم أن ربة الدار لا تحسب في الحريصات اللأني
لا يتفعلن بسهولة إذا لم تجر كل مساء تفتيشاً دقيقاً
على محتويات البيت كلها هبط البلدة نفر من النور
أدرك عبد الكريم إذن أسباب انقباض السكان
واستراحتهم ، ولم يجد أول الأمر حيلة يدفع بها
أسباب الريب سوى أن يعتكف هو وذووه في
البيت ما أمكنهم الاعتكاف . وقد رأى عبد الكريم
يوماً أن ينكر الأصل الذى يمتون إليه فلم يفلح .
فلفد كان في سياهم جميعاً ومعارفهم ونبرات
أصواتهم وحركاتهم وسكناتهم ما لا يجدى معه إنكار
ولا تنكر ؛ هذا عدا ما بوغت الصغار مرة
أو مرتين يتراطنون بلسانهم الخاص برغم ما حذرهم
أبواهم ونهياهم عنه أشد التحذير والنهي

وطال انتظار المائلة أن تخف الريبة والتحوط
فيستطيعوا أن يتصلوا بالسكان ويواصلوهم ، ولا سيما
أنهم جاءوا يطلبون رزقهم عن طريق العمل الشريف
لا من طريق التطفل والنسول والسرقة كما هو دأب
أبناء جنسهم . فصمموا أخيراً على تحدي ارتياب
الناس وخرجوا من مسكنهم وبرزوا للناس
وواجهوهم مواجهة في الأزقة والشوارع وفي سوق
البلدة والساحات العامة دون استخفاء ولا وجل .
ولقد كان لذلك أثره المحتوم ، تخفيت إلى حد بعيد
(٥)

هبط البلدة عبد الكريم البرجى هو وزوجته
الشابة وبنوه الصغار : حسين ومحمود ووصفى ،
وأخذوا لهم مسكناً غرفة مفردة في حي من أحياء
البلدة المتوسطة ، وعزموا أن يعيشوا عيشة هادئة
مستقرة يستريحون معها من الضرب في الآفاق إلى
آخر العمر . ولكن عكر عليهم هذه الآمال وشرذ
تلك الأحلام ما لاحظته عبد الكريم وزوجته صفية
من انقباض السكان عنهم انقباضاً ملحوظاً مذ حلوا
بينهم ، ثم ماجاء بعده من استراية وحيلة تبدوان في
وضوح وصراحة على جميع الأجوار . ولقد حاول
الصغار في اليومين الأولين أن يختلطوا بصبية الحى ،
ولكنهم كانوا في كل محاولة يجدون أنفسهم وحيدين
حيث وقفوا ، وينظرون فإذا الصبية عادوا وعقدوا
لهم بعيداً حلقة أخرى يستأنفون فيها ألعابهم . ولقد
فهم الاخوان الثلاثة مما رأوا من سلوك صغار الحى
ومما فسرهم لهم أبواهم أن وجودهم بينهم غير مرغوب
فيه ، وأن عليهم أن يكفوا عن لحاقهم ، ويكتفوا
باللعب بعضهم مع بعض ، فأذعنوا لذلك كارهين

ولم يجد عبد الكريم البرجى صعوبة في تبين
أسباب هذا الانقباض والاستراية في سكان الحى .
فقد اعتاد أن يرى مثل ذلك حينما حل الممور
نفر من أبناء جنسه ، بل هو يعلم أنه أنحى من الحيلة

في الآفاق ، ولكن حرمة إياه حياة الاستقرار التي اصطنعها أخيراً

وأراد عبد الكريم أخيراً أن يكتسب تقدير الناس واحترامهم بعد أن أزال من نفوسهم كل أثر للريبة وسوء الظن ، فأدخل بنيه الثلاثة مدرسة البلدة يتلقون مبادئ القراءة والكتابة والحساب والتركية كغيرهم من أبناء البلدة

ويبدى أبناء عبد الكريم نشاطاً وطلاقة في الدرس ، فيكونون في طليعة لداتهم طيلة السنوات التي قضاوها في مدرسة البلدة . ويزور المدرسة في آخر العام مفتش معارف الولاية وهو رجل تركي ، ويحتلب انتباهه أبناء عبد الكريم بسيئاتهم وقساوتهم الخاصة ، فيسألهم في بعض ما تعلموه ويجيبونه أجوبة تسره ، فيسأل عنهم . وحينما يخبرونه من أبوم وكيف آثر حياة الاستقرار على حياة التطويق والانتقال تستولى عليه الدهشة والاعجاب ويمت وراء أبيهم ، ويحضر هذا ويسأله المفتش لماذا آثر حياة الاستقرار دون أبناء جنسه ولماذا هو يبعث أبناءه إلى المدرسة ؟ فيجيب جواباً موففاً إذ يقول : « نحن يا سعادة البك نرغب أن نكون خداماً نافعين للدولة إذ نختار حياة الإقامة والاستقرار ، ونعلم الأبناء ليصبحوا قادرين على خدمة الدولة الخدمة الصالحة المفروضة على كل عماني أمين » ويسر المفتش سروراً كبيراً بهذا الجواب ويقول : « عفارم عفارم عبد الكريم ! إننا سوف نرسل بذك على نفقة الدولة إلى المدرسة التجهيزية ليكونوا خداماً صالحين للدولة كما نرغب »

ولم يستطع عبد الكريم أن يجيب على هذا

نظرات الارتباب وخف التهامس بين الناس كلما مروا قريباً منهم ، وناب إلى ربات الدور بعض اطمئنانهم فاستطاعت صفية أن تلقى عليهن التحية وتقف دقيقة أو دقيقتين تحادثهن دون أن ينفرن وينفرط عقدهن أو يتحسنن حلين خشية أن تطير من حيث لا يحتسبن أن تطير

وزاد اطمئنان السكان حينما رأوا عبد الكريم يعمد إلى غربال كبير ويملاؤه بالفواكه والخضر والسحارة المشوية ^(١) والمحمص السلوق وخلافها مما قد يتسع له هذا الغربال ، ويحمله على رأسه ويدور على المساكن من الصباح إلى المساء يبيع ما يستطيع يبعه ثم يعود إلى منزله لا يرحه إلا في صباح اليوم التالي . فلقد أفتعهم هذا بأن عبد الكريم عازم عزماً أكيداً أن يعيش من كد يده لا مما يستطيع أن يناله بالسرقة والتسول

هذا وقد برزت عناصر الطيبة والأرحية في البلدة حينما رأوا عبد الكريم يخرج على تقاليد الجنس وبصطنع هذا الأسلوب من الحياة المستقرة ، ويعيش مما يحصله بكد يمينه وعرق جبينه ، وغدت ربات البيوت لا يشتري من السوق شيئاً يستطعن شراءه منه ، بل غدون يوصينه بأشياء وحاجات معينة يأتين بها من السوق وينال عليها ربحاً يسيراً

وتحسن أحوال العائلة وصار عبد الكريم يستطيع أن يتخذ له دكاناً يستقر فيه ويعرض للناس سلعه ، ولكنه آثر أن يظل بائعاً متجولاً ، وكأنه بذلك يلبى بطريقة محوثة مصفرة ما غرسته الأجيال في دمه ودافته في أعصابه من حب التجوال والضرب

(١) السحارة فصيح « المعلق » العامية

عمله . فقد كان في سمت حسين المستكين وإحدى
العاهات الملازمة له ورسوب أخويه رسوباً شنيعاً
ما جعلهم يشفقون عليه وبما ملونه معاملته لينة ، ولا سيما
انه كان أقل اخوانه انصرافاً عن الدرس إلى اللهو
والاستهتار

وأرسلت النتائج المدرسية للاخوان الثلاثة إلى
مفتش المعارف فقرر فصل محمود ووصني وإبقاء
حسين . وبلغت عبد الكريم نتائج بنيه تلك وما
قرر المفتش حيالها ، فأقامه ذلك وأقدمه ، ولم يقر
له قرار حتى ذهب يبني مقابلة المفتش لعله يستعطفه
وبصرفه عما دبر لابنيه الفاشلين ، ولكن المفتش
أبى أن يقابله ، فلقد أحققه أن يرى ثقته واختياره
يقعان على هم فاشلة ، واستعداد مزيف ؛ ولكن الأب
لم ييأس ولم يفت في عضده أن منع الدخول على
المفتش في مكتبه ، فترصد له في الشارع المؤدى إلى
بيته ، وحالما لم يخرج من المكتب يبني المنزل أقبل
راكضاً من بعيد ، وأكب على يديه ورجليه وما
زال يبكي وينتحب ويستغفر لبنيه إلى أن رق له
ووعده بأن يعيد بنيه جميعاً إلى المدرسة ليحبرهم
سنة أخرى . فضى عبد الكريم ودموع الحزن
والشكر تبلل وجهه ، ودعا للمفتش أحر الدعاء
وعاد على وجهه كل سمات النصر الدليل والنجاح
الضارع

وقبل أن يعود أبناء عبد الكريم إلى المدرسة
في العام الجديد استدعاهم المفتش إلى مكتبه وأنبهم
تأنيلاً شديداً صريخاً على تقصيرهم وسيرتهم المريبة ،
وأخذ عليهم الوثائق في أن يلقموا عن حياة اللهو
والاستهتار وينكبوا على عملهم المدرسي وينصرفوا

الانعام الكبير إلا بالانهيال على يدي المفتش يقبلهما
بشدة ودموع القرح والغبطة تفيض بها أجفانه
وتسبح منهمرة على يدي المفتش النعم

أدخل أبناء عبد الكريم البرجي المدرسة
التجهيزية كما وعد المفتش أباهم ، ولم يفتر لهم هم أو
يخبو سمي أول ما دخلوا المعهد ، فكانوا أمثلة جيدة
في صدق العمل وحسن الاجتهاد ، ولكن الانتقال
من بيئة القرية المحدودة إلى محيط المدينة صاحب
بدون تدرج في هذا الانتقال أو تمهيد له يكون له
غالباً مثل نتيجة الانتقال من المحيط المظلم إلى المحيط
الشديد الاضاءة ، فتمشى الأبصار وتزوغ الأنظار
أمدأ بطول أو يقصر حسب استعداد الأشخاص
لسرعة التكيف والتحول السليم من حال إلى حال .
ومن هنا لم يلبث أبناء عبد الكريم إلا شطراً
يسيراً من العام حتى أدركوا الفارق الكبير بين
حياة القرية ومتمها الضئيلة التافهة ، وبين
ما تتكشف عنه حياة المدينة كل يوم من متع أسرة
ولذات مغرية . ولم يكن من حياة البلدة ونماذج اللهو
فيها — إن صح أن ينسب إليها اللهو — ما يستطيع
أن يتهدهاء أبناء عبد الكريم فيكون لهم جسراً
ينتقلون عليه آمنين من عدوة إلى أخرى من عدوات
الحياة . لم يكن لهم شيء من الخبرة السابقة والقدرة
على تمييز سليم اللهو من الموبق ، فكان لذلك أثره
المحتوم في نتائج عملهم عند نهاية العام ، فرسب
محمود ووصني رسوباً شنيعاً ، ونجح حسين نجاحاً
لعله كان أعود إلى شعور الاشفاق في صدور المدرسين
منه إلى جهد صادق من حسين وتقدير عادل لنتائج

إليه عن كل ما عداه... وخرجوا من لدنه وفي سماتهم وخطواتهم كل دلائل الأدلة والضراعة والانفراج بعد حساب عسير ورهبة

عاد الإخوة الثلاثة إلى المدرسة التجهيزية ، وكأن نصائح المفتش أو تهديده ثم ما يكون عادة من رد الفعل القوى لكل فعل قوى ، قد أثابت إليهم بعض عزيمتهم والمآزب من رشدهم ، فأقبلوا على دروسهم إقبالا إن لم يحقق لهم التبريز فقد جنبهم الفشل . وظل ذلك دأبهم إلى أن خرجوا من المدرسة بعد بضعة أعوام يحملون شهادتها ويحملون في الوقت عينه شيئا غير يسير من صلف المعرفة الناقصة وغرور العلم الفج . هذا إلى ذكريات لوقائع ومغامرات عديدة ما فتئوا يوما يباهون بها ويقولون : « لقد كنا كالحيثان في البحار تفتح أفواهها لتستقبل جميع أنواع السمك بلا تفريق بينها ثم لا تجد معها مع ذلك سموية في هضمها جميعا وتمثيلها ! »

وقد استقبل أهل البلدة أبناء البرجي استقبالا حسنا وطفقوا يهنئون أبويهم أحر التهئة ويتمنون لهم أحسن المستقبل وأفضل العمل . وكانت الإخوان الثلاثة فهموا من إقبال أهل البلدة على تهنئتهم والاستبشار بمستقبلهم أنهم جاءوا يقرون لهم بالفضل المطلق ويبايعونهم على إمارة العلم والمعرفة فأدار ذلك رؤوسهم وضاعف غرورهم وصالفهم إلى حد لا يطاق . وقد احتملهم أهل البلدة أول الأمر إذ ظنوا أنها نشوة النجاح لا تلبث أن تزول ويحل محلها الاتزان والتقدير الصحيح للأمور ، ولكنهم لاحظوا أن أبناء البرجي يعضون في

طريق الغرور والدعوى إلى حد الاستهتار بهم والاحتقار الشديد لهم ، فتارت نائرتهم وأقبلوا يسلقونهم بالسنة حداد ويردون على استهتارهم واحتقارهم بإهم باستهتار واحتقار أشد . ولكن الغريب أن ذلك لم يوقفهم عند حد من الغرور والاستهتار ، فكأنهم آمنوا على أنفسهم من ناحية علمهم ومعرفتهم ، فغدا لا يهمهم أن يهاجوا من أي نواحي الهجوم . وقد أغاظ هذا الموقف غير المبالي أهل البلدة وأحفظهم ، فأداروا رؤوسهم هنا وهناك يلتمسون ناحية ضعيفة في هؤلاء الغرورين ، فينفذون إلى مكان من الغرور فيهم ، فيقتلونه فيهم أو يقتلونهم به . وكما ينزل الوحي فجأة تنهبوا فجأة إلى أن الأخوة من ذلك الجنس الذي يضرب المثل به في الحقارة وهوان الشأن والخطأ . ولم ترحمهم البلدة الموتورة في كرامتها ، فانتشرت لفظة « النور » ومشتقاتها في طول البلدة وعرضها وغدت على كل لسان ؛ وصرت حينما ذهبت لا تسمع إلا : النورى ! النور ! استنور القوم ! ما أنورهم ! قبح النور من أجل النور ! وما إلى هذه الألفاظ والتعابير مما هدى القوم إليه الحقد والضغينة . وفعلت هذه الموجة الصاخبة فعلها فردتهم إلى نفوسهم ، ثم اكتسحتهم اكتساحا ، فعادوا ينقبعون انقباعا شديدا في مسكنهم كمثل ما ألجئوا إليه أول ما هبطوا البلدة . وشعروا بجمرة أليمة إذ رأوا كل ذلك البناء الذي بنوا ينهار عند كلمة واحدة (النور) ، وشعروا كذلك بحقد وكرهية بالغة — لأهل البلدة — بل لذلك الوالد الذي « أبى أن يكون إلانوريا !! » وكم أخذوا يتمنون (بمجدع أنوفهم) لو أنزلوا من صلب غير صلبه !

وفيراً من المال... وينظر الأب إلى هذا المال الكثير فيتنبه إلى أن بنيه يسرفون في معيشتهم ، وأن عليه أن يحد من غرب أهوائهم وينهه من شهواتهم ! وتهاجمه هذه الفكرة هجوماً هيناً أول الأمر ، ثم يعود هجوماً عنيفاً أشد العنف . ويتقدم أخيراً إلى بنيه وينبههم بمرارة وحدة إلى إسرافهم البليغ وتبذيرهم الشديد . ويستغرب الأبناء هذا المظهر الطارىء من أبيهم ويقولون : « مالك تركتنا نعيش كما نشاء والمال قليل بين أيدينا ، ونجى الآن - وقد أسبغ الله علينا نعمه - تريد الحد من أسباب سعادتنا وتمكير صفونا ؟ ! إنه لشيء عجيب حقاً ! » ولكن الأب لا يصنى إلى حجبتهم ويصر على محاسبتهم بحاسبة دقيقة على ما يسرفون ويبدرون . وأخذ يذكرهم أن له الحق المطلق في تنظيم شؤون الصرف كما يرى ويقول : « أى شيء كنتم تكونون الآن لو آثرت الانتفاع بأنمايتكم المبكرة وسفلكم في البلدة ولم أرسلكم إلى مدرستها ؟ ! ثم أى شيء كنتم تصيرون إليه لو لم أترام على قدى الفتش بعد فشلكم الشنيع فبرق لى ويعيدكم إلى المدرسة بعد أن قرر طردكم ؟ ! أذكروا هذا وانظروا أى إثم تقتربون ؟ وأى فضل تنكرون أيها الأبناء العاقون إذ ترغبون أن تركبوا رؤوسكم وتمتطوا أهواءكم الجاحمة كما تشاءون ! »

وقد كان يدعن البنون وينزلون عند هوى الأب لو جاءهم بهذا العزم مبكراً قبل أن تتمكن منهم عادات الاسراف وتتأصل فيهم ، ومن هنا يفهمونه بصراحة أنهم لن ينزلوا عما اعتادوا أن يعيشوا من العيش الرغد ليجاروا هواه الغريب في التقدير والتضييق عليهم . وهكذا يصر الأب من

وجاءهم الفرج - بعد إذ غدت حياتهم لانطاق حقاً - حينما جاءتهم طلبات من الحكومة للعمل في بعض دوائرها . فأقبلوا بلا وِلاء يستعدون للرحيل . وفي ليلة من ليالى كانون الكالحة أمسوا ولم يصبحو

استأجر عبد الكريم وبنوه بيتاً أنيقاً كبيراً في المدينة التي اختير الأبناء للعمل فيها ؛ وتنفسوا الصعداء بعد تلك المطاردة المنيغة التي طوردوها في البلدة ، وشعروا بلذة الانطلاق بعد الانقباض ، وذاقوا حلوة الاطمئنان بعد مرارة القلق . ولكنهم عادوا بعد حين يستشعرون شيئاً من الاضطراب الخفى والقلق المكتوم ؛ واستغربوا أول الأمر أن يعود إليهم القلق والاضطراب بعد نجاة وأمن ، ولكن لم يصعب عليهم أخيراً أن يبينوا أسباب ذلك فقد شعروا أنهم ما يزالون تحت خطر المطاردة ، إذ ماذا يمنع أن يستطيل حقد أهل البلدة ويستمر فيرسلوا من يدل أهل المدينة الكبيرة على أصلهم الوضيع ونشأتهم الحقيرة ، فيكون الشيء الذى لا بطق والتعاسة التي لا تحد . ومضى شهر ثم شهر ثم آخر وهم كالذى بين فكي القضاء لا يدرى متى يطبقان عليه . ولكن بعد أن مضى هذا الزمن ولم يرد من البلدة نبأ يدل على أصلهم أو يحضر رسول سوء يكشف للملا أمرهم ، عاد يتسرّب إليهم الاطمئنان من جديد ، وأيقنوا أنهم سيثبون الظن بأهل القرية أكثر من اللازم

ومضى حال العائلة رخيئاً خليلاً أمداً طويلاً . وقد استطاع الإخوة أن يدخروا من رواتبهم والرشى التي كانوا ينالونها على عادة موظفى ذلك الزمان شيئاً

أن نفرض عليه هذه الرغبة فيقتل نفسه باختياره؟! «
ويجب محمود: « لا تعجل ياوصي اكل ما أعنيه هو
أن يكون ظاهر الأمر انتحاراً وحسب . وعلى كل
أركانى أفكر فى الأمر ملياً ، وأعد للأمر خطة
محكمة أعرضها عليكما غداً » ويقوم كل إلى فراشه
منطوياً على شر ما تنطوى عليه نفس من نفوس البشر

أبدى الإخوة فى الأسابيع التالية تساهلاً
شديداً مع الأب ، فدفعوا إليه بجميع ما لديهم من
نقود وطلبوا إليه أن يجرى الاقتصاد والتدبير فى
جميع نواحي عيشهم . ويدهشه أول الأمر هذا
الانقلاب ينقلبه البنون من موقف العناد إلى موقف
الملاينة ، ويفسره بأنه - لا شك - النتيجة المحتومة
لما هددهم به من هتك سرهم والدلالة على أصلهم .
ويشعر بنشوة الفوز فيمعن فى التدبير والتقير ،
وكما لاحظ أن بنيه يهتمون بكلام يقول : « يا لله !
ماذا يصير إليه حالنا لو علم الناس حقيقة أمرنا والمخفى
من شأننا ؟ ! إنه لشئ صعب حقاً . ولكن الحمد
لله إن أحداً إلى الآن لا يعرف من أمرنا شيئاً ! »
وفى يوم يتقدم حسين إلى أبيه ويقول : « إننا
فى حاجة إلى جبل للفسيل فاشتريه لنا يا أبت وحاول أن
يكون من الجنس الجيد الرخيص »

ويسر الأب إذ يرى بنيه أصبحوا يفهمونه
ويجاريونه على خطته فى الاقتصاد ، فيمد حسيناً بأن
يتناع لهم أحسن الجبال وأرخصها ولو اقتضى الأمر
أن يدور على جميع أسواق المدينة لا يترك منها
واحداً .

ابتاع عبد الكريم البرجى الجبل بعد أن طاف
على معظم أسواق المدينة ينشد الرخص والجودة معاً .

جهته ويصر البنون ، فيدب الخصام ويستطيل
الجدل والمشادة . وفى ثورة من ثورانه بصيح الأب :
« صرتم ناساً يا نور لا تستطيعون أن تعيشوا إلا
كالحكام والولاة ، والله لأرينكم ! » ويجفل البنون
عند كلمة « نور » وتوسع حدقات عيونهم وتشخص
أبصارهم كمن تبين فجأة خطراً داهماً وشرّاً مستطيراً .
ويلحظ الأب ذلك ويتنبه إلى هذا السلاح الحاسم
تقوده إليه فجأة ثورة من ثورات الغضب ، فيعود
يقول : « نعم ، نور وألف نور ؛ والله لأفضحنكم
وأعيدنكم مهزأة فى أفواه الناس أجمعين ! إفعلوا
ما تشاءون وتقدرتون ، وسأفعل ما أستطيع يا نور ! »
(وهنا يرفع صوته بكلمة « نور » عالياً) ويخشى
البنون أن تزداد ثورته فيقوم ينادى على الناس فى
السابلة : تعالوا انظروا النور ، تعالوا أخبركم عن
أصلنا الوضيع الحقير ، فيخرجون صامتين من لدنه
وسياء الكره الشديد والدهشة البالغة فى عيونهم
وعلى وجوههم

وينادى محمود بعد صمت طويل وتفكير عنيف :
« ماذا تريان ؟ ! إن كل ما بنينا يوشك أن ينهار على
رؤوسنا . لماذا لا نفعل شيئاً ؟ هل نبقى كالخوت
غمرست فى جنبه حربة تصعبه حيثما توجه إلى أن
تقضى عليه ؟ ! لماذا لا نزيل هذه الحربة المسمومة من
جنوبنا ونحطمها ونرميها قصيماً ؟ ! » ويجيبه وصي :
« علينا أن نتخلص منه وإلى الشيطان مثل ذاك
الأب اللعين ! » ويقول حسين : « ولكن كيف
نستطيع الخلاص منه ؟ وماذا نصنع لننجو من
عواقب ما تشيران إليه ؟ » ويجيب محمود : « الأمر
هين . علينا أن ندعه ينتحر ! » ويضحك وصي ضحكة
صفراء ويقول منهكاً : « ولكن كيف نستطيع

السوداء والحزن المبهم ، فكنت أسأله ماذا به ولم أراه واجماً ، فكان يجيب : لا شيء ! لا شيء ، وتنبط أساريره ويحول وجوهه كأنه يحاذر أن يطلع أحد على دخيلة أمره . وكنت أسأل والدتي - بحكم نفوذ المرأة إلى أسرار الرجل - هل ترى شيئاً لهذه السوداء والوجوه المتملكة أحياناً ، فتجيب بأنها لا تعلم من أمر ذلك شيئاً »

ويجيء الطبيب ، فيرى أن تنزل الجثة ليفحصها ويرى هل في الحادث جناية مدبرة أم هو انتحار وحسب . ولكن المدعى العام يطلب إليه أن يترث قليلاً ، ويطلب إخراج الاخوة ، فيخرجون . وعندها ينصب الكرسي الذي كان مطروحاً تحت رجل عبد الكريم ، فيلاحظ أن الكرسي لا يصل إلى قدميه بل يظل بينه وبينهما خلاً بمقدار شبر . وعندها يلتفت إلى الطبيب وقائد الدرك ويقول : « حتماً هذا الكرسي وضع هنا للتممية ولم يستعمله الرجل في انتحاره قط ، إن يكن مات منتحراً . وعلى كل دعونا ننزل الجثة الآن فقد يكشف لنا الفحص الطبي أفي المسألة جناية أم هي انتحار وحسب » وتنزل الجثة ويلاحظ المدعى العام أن على الجبل آثار احتكاك حوالى المحل الذي رُبط منه بحديد النافذة ، فيضيف هذه الملاحظة إلى ملاحظته على الكرسي . ويشرح الطبيب في فحص الجثة ، فيقرر بعد الفحص الدقيق أن ليس ثمة أثر لاستعمال العنف ، وأن فقرات العنق محولة بما يدل على أن الجسم ضغط إلى أدنى بعد إذ كان ممتدداً على شيء . إلا أن المدعى العام ينبهه إلى أن حول العنق دائرتين من أثر ضغط الجبل عليه ، ويسأله كيف بعلمه ؛ ولكن الطبيب لا يهتدى إلى تحليل

وفي صباح اليوم التالي لشراء الجبل سمع الجيران سياحاً وولولة فأهرعوا ينظرون ماذا أصاب عائلة البرجي في ذلك الصباح ويدخلون فيرون صفية والاخوان الثلاثة يركون ويعملون أشد البكاء والعويل ، ويسألون : ماذا دهام وأي خطب أصابهم؟ وتشير الزوجة بأصابعها إلى غرفة نوم زوجها ، فيطل الجيران وإذا عبد الكريم معلق من رقبة في حديد النافذة وعينه جاحظتان ولسانه مدلى على صدره مقدار شبر . ويروعه المنظر ، فيجفون ويقبلون على صفية وأبنائها يسألونهم : كيف كان ذلك ومن صنعه ؟ وتجيب صفية : « لا أدري ! لا أدري . كل ما أعرفه أن عبد الكريم ابتاع البارحة جبلاً قال لي إننا نحتاجه وجئت غرفته هذا الصباح لأوقظه فوجدته معلقاً كما ترون » أما الاخوان فكانوا يمثلون دور الذين عقد الحزن السنهم فلم يجيبوا عن استفسار الناس بشيء .

ولم يمض وقت طويل حتى أبلغ قائد الدرك نبأ الحادث ، فحضر إلى بيت عبد الكريم بصحبته المدعى العام . وشرع المدعى العام - بعد أن عين الجثة - يجرى تحقيقاً دقيقاً ، فتوجه إلى الزوجة أولاً وسألها عدة أسئلة ، فتبين من أجوبتها ولهجة حديثها ومظاهر الحزن الأكيد في وجهها أنها لا تعرف من الأسرة سوى فصلها الأخير . فتركها وبادر التحقيق مع البنين ، فكانت أجوبتهم جد متقاربة ، وتشير إشارة واضحة إلى أنهم لا يتهمون أحداً وإلى ترجيحهم أن أباهم مات منتحراً . ولما سأله المدعى العام ماذا يظنون الدافع لانتحار أبيهم ، كادوا يتلثمون لولا أن محموداً قال : « يُخيل إلى أن والدي كان في المدة الأخيرة يتملكه شيء من

جديداً على موت البرجى بما ساقف عليه من ماضى
الرجل وبنيه

بعد شهرين كاملين من هذه الحوادث بكر الناس
في صباح أحد الأيام بالهوض والذهاب إلى قاعة
المحكمة ليتسنى لهم أن يحجزوا فيها مقاعد لهم
ويشهدوا محاكمة أبناء البرجى بتهمة قتلهم أباهم كما
سيثبت ذلك المدعى العام في هذه الجلسة الختامية
وحوالي الساعة العاشرة جاء جنديان مسلحان
يسوقان أبناء البرجى ويدخلانهم قفص الاتهام ؛ وبعد
أن تمت الاجراءات اللازمة وقف المدعى العام وألقى
بصوت هادى، رصين مرافعته التالية :

حضرات القضاة المحترمين : لا أريد أن أطيل
الشرح ولا أكثر التحليل وإنما أكتفى بعرض
موجز للحقائق التى بنيت عليها نظرتى فى الاتهام ،
وهى أن وفاة البرجى لم تكن نتيجة للانتحار كما دلت
على ذلك ظواهر الأمر ، وإنما كانت الوفاة بأيدى
جناة آثمين هم هؤلاء البنون المائلون أمامكم ، إن جاز
فى عرف المبادئ النبيلة والغايات الشريفة أن ندعوهم
أبناء ، ولو كان الصخر ينبت بنات وبنين لقلت إن
هؤلاء الذين لا أستطيع أن أدعوهم بنين إلا تجوزاً
نشأوا من الصخر الجلمد والحجر الأصم

إن أول ما نهينى إلى أن الحادث لم يكن
انتحاراً الكرسى الذى وجدناه مطروحاً تحت رجلى
القتيل . فقد بدا لى أن أقفه تحت رجليه لأرى
أطولوه رجلاً الجثة أم يبق بينه وبينها فراغ ، كما
تبادر لى ؛ وقد صدق حدسى لما نصبت الكرسى
وظل بين أعلاه وقدى القتل مقدار شبر من الفضاء

مقبول . ويضيف المدعى العام إلى ملاحظتيه الأوليين
هذه الملاحظة الثالثة عن أثر الجبل حول العنق

ويطلب المدعى العام الإخوة ، فيحضرون ،
ويعتذر إليهم عن ربكهم بالأسئلة فى وقت هم
أحوج ما يكونون فيه إلى بواعث التعزية . ويسمح
لهم بدفن أبيهم إذ لم ير وجهاً لموته غير الانتحار
يدفن الاخوة أباهم ويمودون من المقبرة .
وفيا هم سائرون والناس وراءهم وأمامهم اغتم محمود
عطفاً فى أحد الشوارع والتفت إلى أخيه وصق ،
وقال بصوت خفيض : « لقد دفنا الماضى البغيض ! »
ولم تفت العبارة أذنين كانتا تسيران خلسة وراءهم
لتلتقطا مثل هذه العبارة أو غيرها

ويزداد المدعى العام يقيناً — بعد أن سمع
ما سمع — بما أخذ يكونه لنفسه من نظرية حول
موت البرجى فيقول : إن هذه العبارة التى همس بها
أحد الاخوان تدل دلالة واضحة على أن الإخوة لم
يمارح نفوسهم قط شئ من الحزن لموت أبيهم ، بل
هى تشير إلى مبلغ ارتياحهم وسرورهم لموت أبيهم .
وليس بالقليل أبداً أن ينسيهم شعور الانفراج بموت
هذا الأب واجب الحيلة اللازمة فيناجى بعضهم
بعضاً بمثل ما سمعت . أما مظهر الحزن الذى يتكلفه
الاخوان الآن تساعدهم عليه طبيعتهم الصفراوية
وملاحظهم المبهمة المكتومة ، فهو دور يمثلونه ويتقنون
تمثيله ، ولكن الذى يحيرنى بعض الحيرة هذا
« الماضى البغيض » الذى يشيرون إليه ، ولعلنى إذا
أرسلت من أعتمد إليه إلى البلدة التى جاءونا منها
بتحرى عن جلية أمرهم ، أستطيع أن ألقى نوراً

والدائرتان من أثر الجبل حول عنق القتيل . فالدائرة السفلى هي بلا ريب أثر الجبل إذ شد على عنق الرجل وهو نائم والدائرة العليا هي أثر الجبل بعد أن علق في حديد النافذة ، وقد نهى إلى دلالة الدائرتين من أثر الجبل حول عنق الرجل الاحتكاك الذي رأته في الجبل قريباً من مكان تعليقه بحديد النافذة ، إذ خيل إلى أن هذا الاحتكاك ناجم من إدخال طرفي الجبل في فجوة من فجوات حديد النافذة وسحبهما من الجهة الخلفية إلى أسفل لرفع الجثة على نحو ما ترفع الأجسام بالبكرات . فقد قلت لأريب أن الرجل مات غنوقاً قبل أن يعلق ، والأرجح بل الأكيد أن يختلف وضع الجبل حول عنق الجثة وهي ملقاة أفقياً ثم وهي معلقة عمودياً ، وعليه طلبت أن يخرج الجبل من عنق الرجل ونظرت فإذا أتران : الأول منحني تحت زيق القميص ، والثاني مكان الجبل إذ شد على عنق الرجل بعد التعليق

وأحببت أن أعلم من جاء بالجبل الذي علق به الرجل ، فسألت الإخوان فأجاب كلهم بأن أباهم ابتاعه كأئهم بذلك يتسارعون إلى إبعاد التهمة عنهم ولكن لم أقتنع بكلامهم ورحت أسأل التجار في السوق هل ابتاع البرجي حبلاً قبل أن تحدث له الوفاة فكان جميعهم يجيب بأن البرجي جاء حقاً يطلب حبلاً . وقد أخبروني جميعاً كذلك بأنه كان في حالة نفسية جيدة وأنه جادلهم طويلاً وما كسهم في الثمن كثيراً فاستغربت ما ذكروه من مظهر حرص الرجل وقلت : هل يعقل أن يكون المرء حريصاً مثل هذا الحرص وهو قادم على الانتحار وتطليق الحياة بخيرها وشرها ؟ ثم ألا يجوز أن الأب حمل اختياراً على شراء الجبل — حملة على ذلك أحد (٦)

وهنا أدركت أن من المستحيل أن يكون الرجل علق نفسه بحديد النافذة ثم ركل الكرسي ، بعد أن صعد عليه ، ليسقط جسمه ويشد الجبل على عنقه ويزهق أنفاسه . وإنما المقول أن يكون الرجل خنق بالجبل على الأرض ثم علق بعدها وطرح الكرسي بين رجله لايهام المحققين والإلقاء في روعهم أن الموت كان انتحاراً وحسب ، ولكن فات الجناة أن يتقنوا أسباب التعمية هنا ، فتم الكرسي عليهم ثم أترنا الجثة وتقدم الطبيب ليفحصها ، وقرر الطبيب أن فقرات العنق محولة مما يدل على سقوط الجثة إلى أسفل ، كما قرر أنه لا تكاد تبدو آثار من استعمال العنف على الجثة ، مما جعله يميل إلى نظرية الموت انتحاراً لا قتلاً

يبد أن تقرير الطبيب وترجيحه الوفاة انتحاراً لا قتلاً لم يفت في عضدي بل كان مساعداً لي على تصوير الجرم تصويراً خيالياً ، ثم وجدت بعدئذ من الحقائق ما يبرر لي هذا التصوير : تصورت أن البنين — لسبب من الأسباب — أرادوا قتل أبيهم فجاءوا بالجبل ودخلوا عليه ليلاً فأنفوه نائماً وعندها وضعوا أنشودة في الجبل وأدخلوا رأس أبيهم فيها وأمسك واحد من الاخوة بطرف من الجبل وآخر بالطرف الآخر ثم تجاذبا الجبل بينهما بقوة وسرعة ففاضت روح المسكين دون أن يبدى مقاومة ، يساعد على ذلك استغراقه في النوم وشيخوخته . وبعد أن أتم الجناة ما جنوا رفعوا الجثة وعلقوها بحديد النافذة ليوهوا الناس أن أباهم مات منتحراً هذه الصورة التي صورتها لنفسى عن كيفية وقوع الجرم حاولت أن أدعمها بالحقائق ، وأول ما جاءني من الحقائق دليلاً على صدق الصورة

بنيه حتى يُعلم في السوق أن الرجل أعد وسائل الانتحار بيده ؟ دارت في نفسى هذه الخواطر ، ففكرت في سؤال الإخوة من جديد لعل أستدرجهم إلى معرفة من أوحى بمشترى الجبل . ولكننى عدلت عن هذا الرأي لأننى رأيت الإخوة - بعد أن رأوا الشبهة تتجه نحوهم - يعمنون في الحذر والحيلة بحيث لم يعد في الامكان استدراجهم . ولكننى لم أياس ، فقد تلطفت بخادم المنزل ، فأخبرتني بأن حسيناً هو الذى طلب إلى والده مشترى الجبل ، وقالت انها علمت ذلك من عبد الكريم نفسه فقد استغربت لماذا اشترى الجبل ولديهم جبال كثيرة ، فأجابها بأن ابنه حسين هو الذى طلب إليه شراء الجبل لحاجة البيت إليه . وزادت الخادم أن نقاشاً حاداً كان يقع بين عبد الكريم وبنيه ، ولكن ذلك النقاش هدأ فجأة كما بدأ فجأة ، وساد البيت بعده مظهر قوى من الاقتصاد والتقدير . وهنا سألت الفتاة : هل تذكر شيئاً مما كان يدور بين الأب والبنين عند ما كان ينجم الجدل والمشادة ، فأجابت بأنها كانت تخشى أن تدنو من الأبواب والنوافذ حينما كانوا يتناقشون ، ولا سيما أن بعض الإخوان كان يخرج الحين بعد الحين يستوثق أن أحداً لا يسرق السمع أو يصنى لما يتجادلون ؛ ولكنها رغم ذلك استطاعت أن تسمع الأب مرة أو مرتين يردد بصوت عال كلمة «نور» فكان الأبناء يستكينون جد الاستكانة ويفكرون عند سماعها . وأخيراً سألت الخادم : هل لاحظت على عبد الكريم قبل أن يقدم على الانتحار شيئاً من الحزن والسوداء ؟ فأجابت بأنها لا تعرف ماذا أعنى بالسوداء ففسرتها

لها ، وعندها قالت : إنها لم تلاحظ شيئاً من ذلك ، بل كأنما لاحظت أن الرجل زاد قوة وانشراحاً ، ولا سيما بعد أن انقطعت المشادة بينه وبين بنيه بعد أن أصغيت ما أصغيت إلى ثرثرة الخادم دون أن تدرك خطورة ما أفضت به إلي قلت : هذه أدلة جديدة تزيدنى يقيناً بأن البرجى راح ضحية العقوق ولؤم البنوة . فالجبل لم يشتره المسكين لينتحر إذن ، وإنما أوحى بنوه إليه بشرائه زيادة في الاحتياط ، فيقول الناس والمحققون ان الرجل ابتاع أسباب الموت والفناء بيده . كذلك أدركت ان ما قاله لي محمود في بدء التحقيق من استيلاء السوداء والشذوذ على أبيه قبيل الحادث واعتقاده ان لذلك علاقة بانتحاره لم يكن إلا أ كذوبة ارتجلها في غير تفكير ليتخلص من حراجة الموقف حينما أمجلمته بالسؤال هو وأخويه عن أسباب انتحار أبيهم . أما ما كان يتردد على لسان الأب وقت المشادة من لفظ «النور» فلم أحمله أول الأمر محملاً خاصاً ، وقلت : هي عادة الشرقيين من الاسفاف في الخصومة وتوزيع الثموت والألقاب في غير قصد ولا اعتدال . ولكننى عدت ونظرت إلى هذا اللفظ يتردد في الخصومة بين الأب والأبناء نظراً جديداً لما جاءني من اتدبته للبحث عن ماضى القوم في البلدة التي جاءوا منها بأن القوم يمتنون مباشرة إلى النور ، وانهم قوطعوا من جراء ذلك مقاطعة شديدة أول ما حلوا البلدة ، ثم طوردوا مطاردة عنيفة - لأمر طارئة - بلفظ «النور» حتى اضطروا أن يرحلوا بليل

بعد هذا عدت إلى ترتيب الحقائق ترتيباً

الأخوين الآخرين !

ويختم المدعى العام مرافقته بطلب الحكم الصارم على الإخوة الثلاثة إذ يقول : إننى أطلب من المحكمة الموقرة ، بعد أن عرضت عليها عرضاً واضحاً عناصر الجريمة وجميع ملابساتها — أن تحكم على هؤلاء الإخوة الثلاثة كقتلة سفاحين انحدروا إلى أقصى دركات الوحشية والألم صفات الاجرام والاثم ؛ إذ من تمتد يده إلى شمعة الحياة في صدر الأبوّة تعبث بها وتطفئها إلا من أعطى نفس خنزير أو أدنى من نفس خنزير !!؟

ويوجه رئيس المحكمة الكلام إلى الإخوة ويقول : أنصحكم — بعد أن وضحت معالم الجريمة — بالاعتراف فذلك أولى لكم وأجلب لاستعمال الرأفة بكم ويقف الرئيس عند عبارته الأخيرة ينتظر جواباً فلا يتكلم أحد . فيعيد الكلام ويسأل : ماذا تقولون ؟ أتصرون على الإنكار ؟ وعندها يرفع حسين صوته ويقول متبجحاً في رنة تكسرهما الذلة ويقطعها الحزن : نعم ، نعم ، نحن القتلة ، نحن المجرمون !! ولا يستطيع محمود ووصى بعد إقرار أخيهما أن يصرّا على الإنكار فيعترفان

واختلى القضاة يتداولون بينهم أمر الحكم ، وشخصت الأبصار نحو الإخوة الثلاثة وفيها من الماني والمواطن المتباينة ما أتى على البقية الباقية من ثباتهم وتماسكهم ، فيلتفت حسين إلى أخويه ويقول بصوت باك ورنه متحطمة :

— أنظروا ! قريباً سفتخلص من جميع ذلك الماضى البغيض !!

أربب عباسي

جديداً بعض الجدة ، فقلت : لا ريب أن الأب كان يهدد بنيه بكشف ماضيهم وانتسابهم إلى ذلك الجنس الوضيع (النور) ، إذا لم يرعوا وينزلوا على مشيئته فيما شجر عليه الخلاف ودبت الخصومة ، فاضطروا أخيراً ، اجتناباً للفضيحة واختياراً لأهون الشرين ، أن يذعنوا بعد أن يبتوا له شراً كبيراً . وقد ذكرت لي الفتاة الخادم أن الخصومة هدأت وتبعها فوراً تقدير واقتصاد شديدان ، وهذا بلا ريب ما كان يريده الأب ونجم عنه الشجار الذي انتهى حينما أذعن البنون . وسارت شؤون الدار على هوى الأب لا على هوى البنين . وقد يبدو مظهر الاقتصاد والتقدير المفاجئ في الأب شيئاً غريباً ، ولكنني أقرر هنا أنها حالة نفسية مشهودة شهوداً عاماً ، فكان رؤية المال يربو ويزداد — ولا سيما عند من يثرون بعد مترية — تزيد الناس حرصاً عليه ورغبة فيه ... أقول : اختار الأبناء أن يذعنوا من جهة ، ولكنهم — من جهة ثانية يبتوا الأب شراً مستطيراً ، فكانت حكاية الانتحار وأخيراً حقيقة الجناية ...

وعند هذا الحد من مرافعة المدعى العام تسمع حركة سقوط في قفص الاتهام ، فيلتفت المشاهدون ويلتفت القضاة فيرون حسيناً ملقى على الأرض وقد أخذته غشية ، ويبادرون إلى إسعافه ، وحالاً يفيق يستأنف المدعى العام مرافقته ويقول : قد رأيتم يا حضرات القضاة المحترمين كيف أنهار أحد التهمين بعد أن لم تقو أعصابه على التماسك في وجه الحقائق الصارخة بأنهم القتلة المجرمون . ثم انظروا كيف غدت غيرة الموت وقرة الفناء تملوان وجهي